تجليات الفضاء التنويري في أدب فرنسيس المراش

الأستاذ الدكتور خليل الموسى*

الملخص

يحاول هذا البحث المعنون بـــ "تجليات الفضاء التنويري فـــي أدب فرانـــسيس مرّاش" أن يتكلم عن دور حلب في حركة النهضة العربية، وقد اختار الباحث أعمـــال مراش الأدبية ليبين هذا الدور.

يقسم البحث إلى خمسة أقسام، تحدّث قي القسم الأول عن مدينة حلب في اقرن التاسع عشر، وتناول في القسم الثاني شيئاً من حياة فرانسيس مراش وأعماله، وبـــيّن في القسم الثالث تأثر مراش بمبادئ الثورة الفرنسية وحقوق الإنسان وإعجابه بمدينـــة باريس والنزعة العلمية، فكان من أصحاب المشروع التنويري، ثم كانت الوقفة عنـــد روايات مراش، وبخاصة "غابة الحق" التي عُدّت أول وراية عربية تنويرية، وكانـــت الوقفة الأخيرة عند المراش شاعراً في ديوانه "مرآة الحسناء" وكتبه الأخرى.

* قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة دمشق

ارتبط مفهوم "التنوير" بالغرب وفلسفته، ولاسيّما في القرن الثامن عشر عصر الثورة الفرنسية التي اشتهرت بفلسفة الأنوار أو حركة التنوير، وهي "حركة فلسفية بدأت في القرن الثامن عشر تتميّز بفكرة التقدّم، والشكّ في التقاليد، ومعارضة الدين، والإيمان بالعقل، والدعوة إلى التفكير الذاتي، والتفاؤل بتأثير التعليم في الإصلاح الأخلاقي"[1]، ومن أشهر أعلامها في فرنسا روسو وفولتير ومونتسيكيو، وفي ألمانيا كانط وهردر، وكان العقل ركيزة أساسية في هذه الحركة، وهو الدين الجديد الذي ينبغي الاحتكام إلى قوانينه، فـ "لاسلطان على العقل إلاَّ العقل نفسه"[2]، ولذلك كانت حركة التنوير ناجمة عن معرفة بالذات ومعرفة الآخر من خلال العقل، وبناء على ذلك هي محاولة للانتقال من الثبات بأشكاله إلى التحوّل المستمر، وكان لكلّ فاعلية تنويرية طرائقها وأساليبها وآلياتها وأهدافها، وإن اختلفت بين مكان وآخر حسب المعطيات والظروف والمعوقات، فحركة التنوير العربية ــ مثلاً ــ لم تكن ناجمة عن مهاد فلسفي هيّأ لها الولادة واحتضن انتشارها بقدر ما كانت نتيجة للاحتكاك بالغرب والإعجاب بما توصّل إليه، فهل كانت هذه الحركة نتيجة للاتصال بالغرب المتفوّق والعدواني بوساطة الحملة الفرنسية على مصر في نهاية القرن الثامن عشر، أو أنها نتيجة لمعرفة الآخر والاطلاع المباشر على حضارته بوساطة البعثات العلمية والرحلات الشخصية إلى الغرب؟ وقد يُصاغ التساؤل أيضاً على الشكل الآتي: هل كانت حركة التنوير العربية إجبارية متمثّلة بالسيطرة الاستعمارية والاحتكاك بالغرب الاستعماري أو أنّها حركة ذاتية عربية اختيارية معرفية قامت بها النخبة نتيجة لبيئة مهيأة لهذا التحول..؟.

قامت حركة التنوير العربية في مصر وبلاد الشام في وقت متقارب، ولكنَّها مختلفة الأهداف في البلدين، فقد كانت في مصر نتيجة لرغبة في إنشاء دولة قوية على غرار

1 - صليبا، د. جميل: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982م، 511/2.
2 - وهبة، مراد: المعجم الفلسفي ، القاهرة، طبعة 4، 1998م، ص231.

الدول الأوربية، ليتسنَّى لمحمد علي باشا وأسرته انتزاع السلطة من الدولة العثمانية العجوز وفرض سلطانه على الوطن العربي في آسية وشمالي أفريقية على الأقل، فأرسل البعثات العلمية إلى أوربة للاختصاص بالطب والعلوم المختلفة والزراعة، وما يتصل بالحياة العسكرية، في حين كانت حركة التنوير في بلاد الشام ذات طابع ثقافي أدبي، وكانت أهمّ المراكز التنويرية في تلك الحقبة القاهرة وبيروت وحلب، ولكنَّ مصر كانت ملجأ ومنارة للنخبة من بلاد الشام بعد أن فرّوا إليها من الاستبداد العثماني، فتجمّعوا هناك، والتقوا زملاءهم المصريين، ومن أهمّ رجالات التنوير الطهطاوي والأفغاني، ومحمد عبده، وقاسم أمين، ويعقوب صرّوف، وفرح أنطون، والشدياق، وشبلي شميل، وأديب أسحق، وسليم النقاش، وعبد الرحمن الكواكبي، وسواهم، وكانوا على اختلاف فيما بينهم في المواقع والاتجاهات والرؤى يؤمنون بالعقل طريقاً إلى الحرية والعدل والمساواة والتعدّدية، ويسعون إلى قيام دولة تقوم على العلم والعمل، ومن هؤلاء المفكر والأديب الحلبي فرنسيس فتح الله المراش موضوع هذا البحث.

لحلب مشاركات في الحركة التنويرية في القرن التاسع عشر لا تقلّ عن المشاركات التي قدمتها مدينتا بيروت والقاهرة في تلك الحقبة، فقد كانت مركزاً للتجارة بين الشرق والغرب زمناً ليس قصيراً، ولكنَّ افتتاح قناة السويس في عصر الخديوي إسماعيل أثّر في مكانتها تأثيراً سلبياً، وحوّل الأنظار عنها إلى ذلك المشروع الضخم الذي ربط الشرق بالغرب مباشرة، ومع ذلك فقد بدأت النهضة في حلب قبل سواها من المدن العربية، ويذكر أن البطريرك أثناسيوس الرابع (1685 ــ 1724)، وهو من آل دبّاس، جلب من بخارست أول مطبعة عربية، وممن اشتهر في هذا المجال من أبناء حلب الشمّاس عبد الله الزاخر (1680 ــ 1748)، وهو من رجال الصناعة في الحفر والنقش والتصوير، وقد أنشأ مع أخ له مطبعة عربية في حلب، ثم سافر إلى دير ماريوحنا الصايغ في لبنان، فأنشأ مطبعته الأثرية سنة 1733، وهي صناعة حلبية خالصة، ولذلك قال عبد الله يوركي حلاق في مقدمة كتاب "أدباء حلب ذوو الأثر في القرن التاسع عشر": "وإنّه لمن دواعي فخارنا أن

نقول: إن النهضة الأدبية التي بسمت في لبنان، وانتقلت إلى مصر، فنمت وازدهرت فيها، كان مبعثها من مدينة حلب الوادعة"[3].

ولا تقتصر الحركة التنويرية في حلب على إنشاء المطبعة العربية، وإنّما كانت في مجالات الحياة والإبداع عموماً، فرزق الله حسون الحلبي (1825 ــ 1880) أصدر في الآستانة أول جريدة عربية سنة 1855، سمّاها "مرآة الأحوال" ونددّ فيها بأعمال الحكومة العثمانية في الولايات العربية، وطالب بإنشاء دولة عربية مستقلة، ثمّ أنشأ في لندن جريدة عربية أخرى سمّاها "آل سام" سنة 1872، وقد حارب على صفحاتها استبداد الدولة العثمانية، وطالب بحرية العرب ونهضتهم، وهاجم من هناك أحمد فارس الشدياق من خلال نشرته الأدبية "رجوم وغساق إلى فارس الشدياق" 1868، ويقال إنّ أحد جواسيس السلطان العثماني دسّ له السمّ في الطعام، فمات في ضاحية وندسور القريبة من لندن[4].

ولحسّون سبق في مجال نظم الحكايات على لسان الحيوان، فله ديوان "نفثات" 1868 الذي عرّبه نثراً ونظماً عن كريلوف شاعر الصقالبة، والديوان في حكم المفقود، وقد أورد الدكتور سامي الكيالي بعض هذه الحكايات[5]، وحسون أول من لجأ إلى الشعر المرسل تنظيراً وتطبيقاً عند العرب، فثار على سلطة القافية، ونبّه إلى إمكانية الخروج عليها في الشعر، فقال: "وقد سنح لي أن أنظم الفصل الثامن عشر من سفر أيوب على أسلوب الشعر القديم بلا قافية (لأنَّ حدّ الشعر عندي نظم موزون وليس القافية تشترط فيه إلاَّ لتحسينه، فقد كان الشعر شعراً قبل أن تعرف القافية، كما

3 - الحمصي، قسطاكي: أدباء حلب ذوو الأثر في القرن التاسع عشر، مطبعة الضاد، حلب، 1968، ص د.

4 - انظر: الموسى، د. خليل: خمسة أدباء مؤسسون من حلب الشهباء، المعرفة، ع 508، ك 2 2006،ص ص 205 ــ 206.

5- انظر: الكيالي، سامي: محاضرات عن الحركة الأدبية في حلب 1800 ــ 1950، معهد الدراسات العربية العالية: 1957، ص ص 43 ــ 47.

هو عند سائر الأمم، ولم يُسمع للعرب بسبعة أبيات على قافية واحدة قبل امرئ القيس لأنَّه أوّل من أحكم قوافيها"[6].

ويمكن أن يتوقف المرء هنا عند شاعر حلبي تنويري آخر معاصر لفرنسيس المراش، وقد ولدا في العام نفسه، هو جبرائيل الدلاّل (1836 ــ 1892) صاحب القصيدة الطويلة "العرش والهيكل" التي عُدّت في زمنها ثورة عارمة على ممارسات بعض رجال الدين واستبداد الساسة والحروب الاقتصادية، قال في استبداد الملوك:

وكذا الملوكُ فليس ينكرُ ما جرى فينا من استبدادِها ووثوبها
أو جور مَنْ فتح الممالكِ عنوةً وبغى على سكّانها وغريبها[7]

ودعا الدلال في نهاية قصيدته إلى نهضة عربية:

هيّا انهضوا، وبطردها اجتهدوا فقد سادَ الدمارُ وعمَّ من تخريبها
أي لا أبالكمُ اخْلَعُوا الأنيارَ إذ جارت على أعناقكم بِلْثَوْبها
وليحكمِ الجمهورَ من عُقَلائِهِ قومٌ تراعى خيرة كنسيبها
ولْتَستَوِ كلّ الحقوق تعادلاً فيعود صوتُ قصيرها كأريبها
حتى ترى كلّ الورى فوق الثرى بالأمن يرعى شاتها مع ديبها[8]

وقد كانت هذه القصيدة سبباً في تكفيره وأودت به إلى السجن، وتوفي فيه، فذهب ضحية فكره ومعتقده ونزعته إلى التحرر[9].

6 - حسّون، رزق الله: أشعر الشعر، المطبعة الأميركانية، بيروت، 1870، ص 3.
7 - نقلاً عن الكيالي: محاضرات، ص 83.
8 - نفسه، ص 85.
9 - انظر المرجع نفسه، ص 28.

كانت حلب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مدينة تعجّ بالأدباء التنويريين، وقد أنجبت عدداً منهم يفوق ما أنجبتهم المدن العربية الأخرى، وقد ذكر قسطاكي الحمصي في كتابه "أدباء حلب" نصر الله طرابلسي، والشيخ حسن الغزي، وأنطوان ميخائيل الصقال، وعبد الله المراش، ومريانا المراش، ومحمد أبو الهدى الصيّادي وعبد الرحمن الكواكبي وسواهم.

ولد فرنسيس فتح الله المراش في حلب سنة 1836، ومنهم من يؤرخ لولادته بعام 1835، وتوفي فيها في أواسط سنة 1873، ولكنَّ الجميع متفقون على أنَّه من أسرة نبغ أفرادها، فوالده فتح الله مراش تاجر، وأخوه عبد الله (1839 ــ 1900) أديب، وأخته الشاعرة مريانا (1849 ــ 1919)، ولكنّ فرنسيس أشهرهم أدبيّاً وأقربهم إلى الحركة التنويرية التي كانت سائدة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وأوسعهم نشاطاً وانتشاراً على صفحات الدوريات، ولا سيما "الجنان" و"النحلة" و"الجوائب"، وأكثرهم جرأة في الدعوة إلى التنوير، فهو رائد من رواد العلم والطبّ والفلسفة والأدب في حلب، وهو شاعر مجيد، وقد أصيب بالحصبة في طفولته، فتركت آثارها السيئة في جسمه وبصره، ثمَّ سافر مع والده إلى أوربة سنة 1850، وعاد إلى حلب، فأقام فيها حتى سنة 1853، ثم أقام سنة مع والده في بيروت، ولما عاد إلى حلب تعرّف إلى أحد الأطباء الإنكليز فيها، ودرس على يديه مهنة الطبّ حتى أتقنها، ثم سافر إلى باريس سنة 1866، ودخل كلية الطبّ لينال شهادتها، ولكنّه فقد بصره على الأرجح هناك، وكان قد فقد والديه أيضاً، فحزن عليهما حزناً شديداً، وعاد إلى حلب ليعتزل الحياة والناس كما فعل أبو العلاء المعري من قبل، وانصرف في أخريات أيامه إلى التأليف، فأصدر خلال مدة قصيرة لا تتجاوز ستة أعوام عشرة كتب فضلاً عن الرسائل والمقالات الكثيرة التي نشرها في المجلات، وقد جعلته هذه المؤلفات من أهم دعاة التنوير في مدينة حلب في ذلك العصر.

على الرغم من أن حياة فرنسيس كانت قصيرة (38 عاماً تقريباً) لكنّه كان من أهم رجالات العرب المتنورين وهذا ناجم عن ثقافته الموسوعية في العلوم والمعارف والرياضيات والآداب، فضلاً عن أنه أتقن عدة لغات: العربية والتركية والفرنسية والإيطالية. أما مؤلفاته المطبوعة فهي:

1 ــ المرآة الصفية في المبادئ الطبيعية، حلب 1861.

2 ــ تعزية المكروب وراحة المتعوب ــ حلب 1864.

3ــ غابة الحق، حلب 1865، المطبعة المارونية وعلى نفقة إليان نقولا إليان الحلبي.

4 ــ مراثي إسحق حكيم (شعر)، المطبعة العمومية، بيروت، 1866.

5 ــ رحلة إلى باريس، بيروت، 1867.

6 ــ مرآة الحسناء (شعر)، مطبعة المعارف، بيروت، 1872.

7ــ الكنوز الغنية في الرموز الميمونية (شعر)، بيروت، 1870 (قصيدة في 500 بيت).

8 ــ مراثي شاهين سركيس (شعر)، بيروت 1870.

9 ــ دُرّ الصَّدَف في غرائب الصُّدَف (رواية)، مطبعة المعارف، بيروت، 1873.

10 ــ مشهد الأحوال، المطبعة الكلية، بيروت، 1883.

11 ــ شهادة الطبيعة في وجود الله والشريعة، المطبعة الأمريكانية ببيروت[10].

---

10 - انظر في ترجمته:

ــ زيدان، جرجي: المؤلفات الكاملة (16)، دار الجيل، بيروت، 1982 القسم الثاني من مشاهير الشرق. ص ص 447 ــ 451.

ــ الحمصي، قسطاكي: أدباء حلب ذوو الأثر في القرن التاسع عشر، مطبعة الضاد، حلب 1968، ص 58-71.

ــ عبود، مارون: المجموعة الكاملة (2)، دار مارون عبود، بيروت، 1986، في كتابه "رواد النهضة الحديثة).ص ص 121 ــ 136.

ــ حاج إسماعيل، حيدر: فرنسيس المراش، رياض الريس للكتب والنشر، 1989.

ــ فتوح، عيسى: وجوه مضيئة في الأدب العربي الحديث، مكتبة السائح (طرابلس)، ودار كيوان ــ (دمشق). 2003 ــ ص 7 ــ 13.

ــ الموسى، د. خليل: خمسة أدباء مؤسسون من حلب الشهباء، المعرفة، ع 508، ك 2 2006.

ونظراً إلى أن فرنسيس المراش كان إنتاج الحركة التنويرية في مدينة حلب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فإنّه ينبغي لنا أن نضعه ضمن عصره وزمانه، فولادة المراش قبل ولادة محمود سامي البارودي بثلاث سنوات تقريباً، ووفاته قبل وفاة البارودي بما يزيد على ثلاثين سنة، وقد توفي المراش في العام الذي توفي فيه فتى مصر الأول رفاعة رافع الطهطاوي (1873)، وهو على الرغم من عمره القصير قد قدّم للحركة التنويرية العربية مزيداً من العطاءات المختلفة، وهو في ذلك شبيه بجبران خليل جبران في المهجر، وأبي القاسم الشابي في تونس، وبدر شاكر السياب في العراق، وقد كان المراش موسوعيّاً في معرفته وإبداعاته، ولكنّ الدراسات التي كُتبت عن إنتاجه، ولاسيما ما يتصل منها بدوره التنويري، ما زالت قاصرة، لأسباب وجيهة، وأهمها أن الحصول على أعماله ليس متيسراً، وإن كان المرحوم سامي الكيالي قد أولاه بعض الاهتمام في كتابه الرائد "محاضرات عن الحركة الأدبية في حلب 1800 ــ 1950"، وقد خصّ حركته التنويرية محمد جمال باروت بقسم وافر من كتابه: "حركة التنوير العربية في القرن التاسع عشر، حلقة حلب"، ومع ذلك فإن الاهتمام الأكاديمي بفرنسيس المراش أو سواه من متنوري مدينة حلب ضروري لوضع الأمور في أماكنها وإعادة الحقّ لدور حلب التاريخي في هذه المرحلة، فثمة مئات الكتب والدراسات والمقالات عن جبران والشابي والسياب والرصافي والبارودي وشوقي وسواهم من أدباء التنوير، في حين أُهمل أعلام حلب الذين لا يقلّ دورهم عن سواهم في بيروت والقاهرة وبغداد، ولذلك جاءت هذه الدراسة دعوة لضرورة الالتفات إلى دور حلب الرائد من خلال تجليات الفضاء التنويري في أدب فرنسيس المراش ضمن النقاط الآتية:

ــ المراش المجدّد على صعيد الفكر.

ــ المراش المجدّد على صعيد الجنس الروائي.

ـــ المراش المجدّد على صعيد الشعر.

كانت الحركة التنويرية تسير على قدم وساق في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في بلاد الشام ومصر، ولاسيما بعد الأحداث الدموية الدينية سنة 1860 في لبنان ودمشق، وأدركت النخبة المتنوّرة أنَّ وراء تلك الأحداث الأليمة دولاً ذات مصالح اقتصادية في انقسام الشعب الواحد لتقسيمه واقتسامه، وأنَّ لبعض السلطات الدينية دوراً مباشراً أو غير مباشر في ذلك، وأدركت في الوقت ذاته أنَّ مصلحة الشعب العربي في تحرّره من الغرباء، ولا يتمّ ذلك إلاَّ من خلال التنوير ونبذ التفرقة، ولذلك كانت بيروت وحلب حاضنتين لهذا الفكر، وانتشرت منهما الأفكار التنويرية التي تدعو إلى الإخاء والمساواة والديمقراطية إلى أصقاع المعمورة، ولاسيما مصر والمهجر، وفرنسيس المراش واحد من دعاة هذا الفكر، وربما كان من أهمّهم وأشجعهم وأسبقهم إلى هذه الدعوة، وقد وصفه مارون عبود قائلاً: "كان فرنسيس المراش على قصر عمره زعيماً أدبيّاً ترك دويّاً، إن لم يكن في الدنيا، كما أراده أبو الطيب المتنبي، فقد بلغ الفرات زئيره والنيلا.. وكيف لا يسوّغ لي أن أستعير له وصف المتنبي لأسده وهو الذي اجترأ على نشد الحرية يوم كانت الأفواه مكمومة"[11].

تتجلّى النزعة التنويرية في أعمال المراش النثرية والشعرية، فهو داعيةٌ عارف مثل غيره من المتنورين العرب في مطلع عصر النهضة، وقد سخّروا أدبهم لقيام مجتمع جديد، وهذا لا يتمّ إلاَّ بتحكيم العقل وانتشار المساواة والمحبّة، ولذلك كان المراش معجباً ومنبهراً بالثورة الفرنسية ومبادئ حقوق الإنسان، ويعدّ ما كتبه عن باريس رسالة موجهة إلى بني قومه للسير على هدي الفرنسيين للوصول إلى مجتمع جديد، ولاسيما أنّ ثورة العبيد في أمريكا تُعدّ ثمرة من ثمار هذه المبادئ، ففي كتابه "رحلة باريس" تصوير دقيق لمعالم هذه الرحلة التي بدأت من حلب في السابع من

11- المجموعة الكاملة (2)، ص 121.

أيلول لعام 1866 قاصداً الإسكندرونة، فاللاذقية وطرابلس وبيروت، ثم يافا فالإسكندرية والقاهرة، ثم العودة إلى الإسكندرية، فالبلاد الفرنسية، مرسيليا، فليون، وهو يصف رحلته بالقطار فيما بين ليون وباريس، فيقول: "ثمَّ بعد تمضية ثلاثة أيام في ليون ركبتُ نسرَ البخار فطار بي إلى مدينة باريس على ذلك النسق المارِّ ذكرُهُ، فكان وصولي إليها قرب انغلاق الصباح. وهأنا الآن في مركز مجد العالم وأعجوبته. هو ذا تيار البخار قد دفعني الآن إلى مدينة باريس مصبّ أنهار العجائب، وموقع أنوار التمدن والآداب، وها قد أخذت عيناي ترى ما كان يراه ذاك الذي خطفته أرواح الآلهة إلى السماء الثامنة"[12].

ثم يبدأ بعد ذلك بوصف مفاتن باريس الحضارية كما فعل الطهطاوي من قبل، فيصف أسواقها ومخازنها ومسارحها وكنائسها وبساتينها، ثم ينصرف إلى وصف علومها ومعاهدها، ويزداد إيمانه وإعجابه بالعقل، فهذه ثماره تدلّ عليه، فيقول: "وكلّ هذا الجمال العجيب والكمال الغريب الذي رقت إليها هذه المدينة العظيمة إنما هو نتيجة ما بلغ إليه العقل عندهم من التقدّم والنجاح. فلا ريب أن سلطان عقل هذا الجيل في هذه الديار قد جلس الآن على عرش كماله، وأخذ يشنّ على العالم غارات قواته ليفتتح معاقل الطبيعة، ويقلب ممالك الظلام"[13].

وما كان لهذا العقل أن تتفتح أزاهيره وتغلّ براعمه لولا الديمقراطية وحبّ الأوطان وما يلاقيه المبدعون من تشجيع في هذه البلاد لينهضوا بها إلى حيث لا ترتقي سواها على نقيض ما هي الحال عليه في بلاد التخلّف والجهل التي تغطّ في نوم عميق، وتحارب العقل والعلوم بلا هوادة، ولذلك يقيم المراش موازنة ذات نتائج أليمة،

12 - رحلة باريس (1867)، حرّرها وقدم لها قاسم وهب، دار السويدي للنشر والتوزيع (أبو ظبي)، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر (بيروت)، ط 1، 2004، ص 41.

13 - المصدر نفسه، ص 45.

فالعالم في الشرق محارب ومحتقر، وهو في باريس مقدّم ومحترم، فيقول: "فيا لسوء حظّنا نحن بني المشرق، ويا لشدة نحْسنا لأنه إذا وجدت الصدف عندنا من له هوس ما في العلم عاش مقطوع الخرج، وربما يُحتقر ويُهان فلا ينال من علامات الشرف سوى الجهل به والسخرية"[14].

وينهي المراش كتابة الرحلة بكلمة ذات دلالة، وهي تعني أنّ المشاهدة غير الكلام، والإحاطة بأحوال باريس أمر متعذّر على زائر عابر، ولذلك كانت محاسنها فوق الوصف والشرح: "هذا ما أمكن للقلم الآن أن يتمخّض به نثراً في الكلام على هذه المدينة البديعة باريس، سيّدة المدن، وعلى بعض أحوالها، ولكن من يأتي إليها، ويشاهد محاسنها عياناً إنّما يراها فوق كلّ كلام وشرح"[15].

لا يقتصر الإعجاب بمدينة باريس مركز الحضارة العالمية حينذاك على المراش، وإنّما نجد مثل ذلك في كتب الرحلات التي هي شبيهة بالروايات، كما هي الحال في كتاب "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" للطهطاوي، و"الواسطة في معرفة مالطة" و"كشف المخبا عن فنون أوربا" للشدياق، ولكن إعجاب المراش كان أشد وأقوى لأنّه موجّه إلى العقل والعلم أكثر من سواهما، وهو مدعّم بالحجج التي ينبغي لنا أن نلتفت إليها، ومنها أن وصف تلك البلاد في كتب الرحلات الأخرى كان مقتصراً إلى حدّ ما على وصف العادات والتقاليد فضلاً عن منجزات العقل، في حين كان تركيز المراش على العقل، وكان أكثر إقناعاً مع أنّه أكثر حدّة وانبهاراً، فقد وصف المراش رحلته كاملة، ووصف المدن التي مرّ بها، وآلمه ما وجده من خراب في مدينة الإسكندرونة، وإذا هذه المدن إزاء جمال باريس وعلومها لا شيء. ويتجلّى ذلك بصورة أوضح حين وصف القطار الذي أقلّه من مدينة ليون إلى باريس ليثبت أنّ للعقل ثماراً لا مثيل لها، ولذلك لم يكن إعجابه ناجماً عن فراغ،

14 - المصدر نفسه، ص 47.

15 - المصدر نفسه، ص 51.

وإنما هو يرى عالماً غير عالم بلاده، فيتحسّر، وهو يدرك أنّ وراء هذا الاختلاف الأنظمة المختلفة، فهناك يسود العقل والعلم والعمل والمساواة، وهنا يسود الجهل والتناحر والتخلّف، ولذلك كانت دعوته إلى التنوير أكثر حدّة عنده، فَوَاجَهَ سلطة رجال الدين، واتهم بالتجديف والكفر، مع أنَّه برهن في إحدى رسائله على عدم التناقض بين العلم والدين، وقد قال جمال باروت في ذلك: "وقد احتضنت النزعة العلمية العقلانية لدى منوري الستينيات بذور الشكّ والإلحاد والعداء للإكليركية. ورغم أنّ فرنسيس مراش حاول في "شهادة الطبيعة في وجود الله والشريعة" (حلب 1861) أن يبرهن على عدم التناقض ما بين العلم والدين (...) فإنّ أفكاره العلمية العقلانية اتهمت في أوساط المدارس التبشيرية في حلب بـ "التجديف" و"الكفر" والعصيان"[16]، ومع ذلك لم يتنازل أو يتراجع عن أفكاره، وإنما استمر المراش في الدعوة لمشروعه التنويري: التحوّل من المجتمع القروسطي إلى مجتمع مدني حرّ على شاكلة المجتمع الفرنسي التنويري الذي يجده المرء في معظم أعماله، ولاسيما روايته "غابة الحقّ"، لإيمانه المطلق بمبادئ الثورة الفرنسية: "ولعلّ المراش هو أول منوِّر عربي يصوغ نظريتي "العقد الاجتماعي" و"الحقّ الطبيعي" على نحو مترابط، إذ إنّ هذه الصياغة تكاد تكون مفقودة في الأدب التنويري العربي، وتبدو أهمية ذلك في أنّ المراش أعاد في الواقع صياغة أهمّ نظرية في الثورة الفرنسية"[17].

وتتجلّى النزعة التنويرية في أسطع صورها في رواية "غابة الحقّ"، فهي دعوة صارخة لضرورة تبني العقل والعلم للخروج من مملكة التوحش إلى مملكة التمدّن، ومن المرجّح أنَّ الهدف الأول من كتابة هذه الرواية تنويري، وهذا ما فعله فيما بعد جرجي زيدان في رواياته التاريخية، فكان هدفه الأول من رواياته العودة إلى قراءة التاريخ، ولذلك قدّم التاريخ على صورة رواية لتشويق المتلقين.

16 - باروت، جمال: حركة التنوير العربية في القرن التاسع عشر ــ حلقة حلب، منشورات وزارة الثقافة. دمشق، 1994، ص 43.

17 - المرجع نفسه، ص 101.

تتألف رواية "غابة الحق" (1865) من مقدمة وثمانية فصول، ففي المقدمة دعوة صريحة إلى أن العقل هو الذي يحكم في ممالك الأرض، والعلم هو الغالب والمنتصر، ولذلك رفض العالم الجديد (أمريكا) قبول شريعة العبودية[18]، فثار عليها وانتصر، فأخذت الراوي سنة المنام وانفتحت عيناه على مسرح الأحلام، ليدخل إلى الفصل الأول (الحلم)، فيجد نفسه قريباً من غابة عظيمة ذات أشجار ضخمة عالية، فيرى هناك ملك الحرية على كرسي العرش، ويرى زوجه ملكة الحكمة على كرسي آخر، وهما يتحاوران حول مصير ملك التوحش الأسير، فتنصحه زوجه بأن يعامله معاملة طيبة ليتغلّب عليه، ويقول الراوي على لسانها: "فأشور عليك إذاً يا أيها الملك الجليل وأرجوك أن تتنازل إلى قبول مشورتي، وأن تستحضر لديك ذلك الملك العنيد مع أهمِّ أعوانه، وتضع لهم شرائع وقوانين جديدة يسلكون بموجبها، وتشدّد ذلك الوضع بالصرامة اللازمة بعد توبيخهم وتبكيتهم، ثمَّ تجعل لكل منهم ناظراً من طرفك. وكذلك يجب أن تكون كثر عساكرهم من جنس عساكرنا، كيلا يعود لهم مقدرة على مخالفة الناموس أو العصيان والتمرد، ولكي يعلموا أنك أنت هو الملك الأكبر مقداراً والأشد عزيمة والأوسع مملكة وأجناداً، وأنَّه بأي وقت تشاء يمكنك شنّ الغارة عليهم وأسرهم وسجنهم حسبما فعلت الآن"[19]، ثم طلبت الملكة في نهاية الفصل من قائد الجيش أن يستدعي الفيلسوف من محلّته في مدينة النور للحضور العاجل.

وتبرز شخصية الفيلسوف بطل هذه الرواية في الفصل الثاني "الهواجس"، فيصفه الراوي أولاً وصفاً دقيقاً، ثم يبدأ الحوار ليبيّن للملكين ألاّ خلاص للإنسان من العبودية، فهي ملازمة له منذ ولادته إلى وفاته، وهو عبد للحسد والطمع والكبرياء، ويتضح من خطابه إيمانه بسلطان العقل، ولا يتناقض ذلك مع إيمانه بوجود خالق

18 - انظر: مراش، فرنسيس فتح الله: غابة الحق (تقديم ودراسة د. جابر عصفور)، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، 2001، ص ص 71 ــ 72.

19 - المصدر نفسه، ص 81.

عظيم، فيقول: "إنَّه يوجد ربّ منزّه عن إدراك الأفهام مهتم دائماً بتدبير عموم تلك المخلوقات ومنه الحياة كانت وكلّ شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كُوِّن، وهو محرّك الحركات وأصل الكائنات وإليه مصير الأشياء جميعها لا إله إلاَّ هو ولا معبود سواه"[20]، ثمّ يبيّن في نهاية هذا الفصل ضرورة هدم مباني العبودية.

ويدافع الفيلسوف في الفصل الثالث "مملكة الروح" عن هذه المملكة وتعاليمها التي تحفظ الإنسان من الزلل والفساد، ويطلب من الملك أن يكون عوناً لها لا عدوّاً يحاربها، فإذا كانت مملكة التمدن قائمة بالأبدان، فإن مملكة الروح ثابتة بالأرواح، ولا غنى لهذه عن تلك، ثم كان سؤال الملك للفيلسوف في نهاية الفصل، ليفتتح الأخير الفصل الرابع "السياسة والمملكة" بإجابته التي تتضمن تفسيراً لنشوء السيادة والأنظمة بدءاً من العائلة، فالقبيلة، فالدول، وهذا متصل بالتحولات الاجتماعية والاقتصادية والقانونية، ثم قامت الحروب بين هذه الجهة وتلك نتيجة للحسد والطمع، ثم انفرد الفيلسوف وقائد جيش التمدن، وتحاورا في مصير مملكة التوحش، وسأل القائد الفيلسوف عن دعائم التمدن ليكون هذا السؤال رابطاً بين فصلين.

يتضمّن الفصل الخامس "التمدن" إجابة الفيلسوف عن السؤال السابق، ويرى أن دعائم التمدن خمس، وهي تهذيب السياسة، ويقدّم في هذه الدعامة صفات الرجل السياسي، فهو من أصل كريم ويتصف بمعرفة الشرائع والقوانين، وبهمة عالية، وتربية حسنة، وعدل منشور، وهيبة عالية، وأن يراعي المصلحة العامة، ويكون منتخباً من عامة الشعب، وأن ينهض بالبلاد على الصعد كافة، ويقوم بحماية مواطنيه، والدعامة الثانية تثقيف العقل، وهي صفة من صفات التمدّن تكتسب بالمخالطة أولاً، وتأمل الحياة في الأشياء الحية ثانياً، وهو يقدّم الحجة تلو الحجة ليخلص إلى أن ما أصاب المدن السورية من خراب كان بسبب غياب العقل، "بدون تثقيف العقل إذن لا

20 - المصدر نفسه، ص ص 110 ــ 111.

يتصف الإنسان إلاّ بصفة البهائم التي لا عقل لها، ولا يمكن أن يدعى متمدناً قطّ"[21] والدعامة الثالثة تحسين العوائد والأخلاق، ولذلك يتنافى التمدن ــ من وجهة نظره ــ مع السكر والنهم والفجور والكذب والنميمة والغضب والجبن في حياة الفرد، ولا يتواءم التمدن مع كثير من عادات مجتمعنا القبيحة وأخلاقه الرديئة. والدعامة الرابعة صحة المدينة، وهي تقوم على النظافة، وتمهيد الشوارع والأزقة، وترميم الأبنية. أما الدعامة الخامسة فهي المحبة، وهنا ترتفع وتيرة الإيقاع الشعري في النثر، ويتقدّم المراش الشاعر على سواه شعراً ونثراً لتنتهي إجابته مع انتهاء هذا الفصل الطويل.

ويتضمن الفصل السادس شخصيات جديدة تدخل إلى مسرح الأحداث، وهي شخصيات الأسرى، فالشخصية الأولى لملك العبودية، والثانية لقائد الجهل، والثالثة لقائد الكبرياء، والرابعة لقائد الحسد والطمع، ثم قائد البخل، فقائد الضغينة وقائد النميمة وقائد الكذب والنفاق، وحامل لواء الخيانة، ثم جاء من يقابلهم: العلم والاتضاع والرضاء والقناعة والكرم... لتبدأ المحاكمة.

تجري المحاكمة في الفصل السابع، إذ بدأ الفيلسوف خطابه إلى ملك العبودية، وكأنه القاضي يوجه تهمه إليه، وينذره بزوال مملكته القائمة على الظلم واسترقاق بني البشر الذين خلقهم الله أحراراً، ويطلب منه أن يُطلق عبده متمثّلاً بتحرير العبيد في أمريكا (ص 226)، وبينما الجمع في هرج ومرج إذ طلب وزير محبة السلام من الفيلسوف أن يسمح للعبد ياقوت برواية ما جرى معه للجمهور، فإذا حكاية العبد ياقوت (ص 229 ــ 239) تعزّز حكاية "غابة الحقّ" في أن العلم هو الطريق الوحيدة لإنقاذ العرب ونهضتهم (ص 237)، ويلتقي ياقوت بعد زمن غير قصير بأخيه العبد مرجان في عاصمة الدولة العلية، ليروي هو الآخر حكايته (239 ــ 241)، ومع أن معاملة صاحب العبد مرجان مختلفة عن معاملة صاحب العبد ياقوت القاسي فإنّ

21 - المصدر نفسه، ص 171.

العبودية واحدة، ثم يوجه الفيلسوف خطابه إلى قائد الجهل، فقائد الكبرياء، فقائد الحسد والطمع وقائد البخل، ويصوّر بعد ذلك قائد الضغينة وقائد النميمة وقائد الكذب والنفاق وينتهي عند قائد الخيانة.

أما الفصل الأخير (اليقظة) فهو فصل قصير (ثلاث صفحات)، وفيه يتنبأ الراوي بأن تصيب مراحم السلطان عبد العزيز خان شهباء سورية بالعناية الملوكانية، ثم يفتح الراوي أجفانه فيجد نفسه على فراش النوم تحت سماء اليقظة.

ويستطيع القارئ أن يتوقف عند الملاحظات المختصرة الآتية في هذه الرواية التنويرية:

1 ــ تجري أحداث هذه الرواية في الحلم مع بداية الفصل الأول وتنتهي في اليقظة مع العبارة الأخيرة، وهذا يعني أن مسرح الأحداث الروائية متكامل ومضبوط بدقة تخييلية واضحة.

2 ــ يتخفّى المرّاش خلف شخصية الفيلسوف بطل هذه الرواية التخييلية ليبثّ أفكاره في الحرية والتمدن، ولا يكون ذلك إلاَّ بتقديم العقل والعلم وانتصارهما وانتصار مملكة التقدم على مملكة التوحش متأثراً في ذلك كلّه بمبادئ الثورة الفرنسية وإعلان حقوق الإنسان في الحرية والمساواة، وهو لا يجد تناقضاً بين العلم والدين في هذا المجال (ص 122)، بل يكمّل أحدهما الآخر في بناء المملكة الجديدة، فالروح تحمي العلوم من الانهيار، ولذلك كان التمدن يحلّق بجناحي العلم والدين كما رأى الدكتور جابر عصفور[22].

3 ــ تقوم هذه الرواية على الموازنات العلمية والصراعات المختلفة، فمن الموازنات ما جاء من وصف لما كانت عليه البلاد السورية في ماضيها العريق، ولما هي

22 - انظر الدراسة الغنية التي قدمها عصفور: غابة الحق، ص 44.

عليه في حاضرها التاعس والخراب الذي حلّ بها نتيجة للجهل والتوحش (ص ص 169ــ 171)، وهو يعيد ذلك إلى غياب العقل، ويقدّم الحجة والبرهان على ذلك لتكون النتائج مقبولة، وكأننا إزاء بحث اجتماعي تاريخي، وهي رواية مبنية على الصراع بين الفيلسوف ممثل العقل الذي يحتلّ صفحات الرواية بصفته البطل الإيجابي وبين الأبطال السلبيين، وفي مقدمتهم ملك التوحش وقادته الكثر، وهم يمثّلون السلطة القمعية للدولة، ولذلك كانت رواية "غابة الحقّ" ذات طابع فلسفي عقلاني، وهي رواية صدامية جريئة تخاطب عقل القارئ، وتبحث عن المسكوت عنه (الحرية والعروبة)، ولذلك هي رواية إحيائية بقوّة، وإن كانت لتعليم القارئ وتوجيهه وتحريضه أكثر مما هي لتسليته، وهذا هو هدف المراش.

4 ــ لا يعني ما تقدّم أنَّ المراش أهمل عمله الفني روائيّاً، فهو قد سعى إلى تقديمه بصورة روائية مثلى حسب معطيات العصر الذي أُنجزت فيه الرواية، فالأحداث فيها متصلة ومتكاملة، وحضور الراوي الذي يشاهد الأحداث ويرويها من خلال ضمير مفرد المتكلم (أنا) (وبينما كنتُ أجول ــ ص 97) بصفته شاهداً على الأحداث هو حضور الراوي المشارك، فهو صاحب المقدمة، وهو الذي ينام ليروي لنا الأحداث التي رآها في الحلم، ولا يستفيق من رؤاه إلاَّ في نهاية الرواية، ولذلك توافر في هذه الرواية الراوي الخبير والمشارك، والمرويّ (الرسالة ــ غابة الحق)، والمروي له (القارئ العربي).

وفي هذه الرواية وصف شعري خلاَّق، ومقاطع تُبرز المراش الشاعر الخلاق، وهذا كثير في هذه الرواية، كوصفه للمرأة (ص 77 ــ 78)، ووصفه للطبيعة وصفاً رومانسيّاً خالصاً (ص 131 ــ 133)، ووصفه للمحبة بأسلوب صوفي شاعري (ص 188 ــ 193)، وكأن جبران خليل جبران قد التفت إلى هذا الوصف حين صاغ كتابه "النبيّ"، فضلاً عن الصراع والحوار الذي يقوم بين الشخصيات، واستخدام الثقافتين الدينية (ص 88 ــ 92)، والعلمية (ص 166 ــ 167) في أسلوبه وبناء روايته، زد

على ذلك استخدام الحكاية القصيرة ضمن الحكاية الأم أو الرحم، وهذا ما دفع الدكتور جابر عصفور إلى أن يرى أنها الرواية العربية الأولى في العصر الحديث[23].

5 ــ لا يعني ما تقدّم أيضاً أنّ هذه الرواية منفصلة عن زمنها وثقافته، وهي بلا عيوب أو مآخذ فنيّة، فالشخصيات فيها باهتة، وهي مرسومة من الخارج، وتتوجّه بناء على ما يريد منها الراوي، وكأنّها ليست من لحم ودم، وهي تحمل أفكاراً، ولكنّها لا تتكلّم، وإنّما يُتكلَّم عليها، فالراوي هو الوحيد الذي يتحدّث في هذه الرواية، وكأنّ هذه الشخصيات قد دُفنت قبل ولادتها، ولذلك كان السرد مباشراً، وأسلوب المراش ممتلئاً بالسجع أسلوب ذلك العصر حتى إنّنا نظن أنفسنا أحياناً إزاء إحدى المقامات (ص 77)، وفي الوصف صفحات زائدة، والهدف منها التركيز على الفكرة من جهة، وإظهار مقدرة الكاتب من جهة أخرى، فضلاً عن النزعة الخطابية التي اتصف بها حوار الفيلسوف، ومع ذلك حقّق المراش هدفه من هذه الرواية وسبق عصره في دعوته التنويرية، وقد قال مارون عبود عن المراش في معرض حديثه عن هذه الرواية: "ألا ترى مثلي أن كاتبنا قد دعا منذ ثمانين عاماً إلى ما تدعو إليه "الأونسكو اليوم؟"[24].

تجلّت النزعة التنويرية أيضاً في قصائد المراش، وهي موزّعة بين ديوانه "مرآة الحسناء" وكتبه الأخرى، ويستحسن هنا أن نستعرض المقدمة النثرية التي قدّم بها لديوانه الكبير، وهي بيان شعري، ومفتاح من مفاتيح شعره على أساس أنّ المقدمة آخر ما يكتبه المؤلف أو الشاعر من جهة، ثم هي مصاحب نصّي "Paratexte" وملخّص لفكره النقدي ورؤيته للشعر وطبيعته وقراءة لشعره من جهة أخرى، وهذه هي المقدمة كاملة:

---

23 - المرجع نفسه، ص 9.

24 - المجموعة الكاملة (2)، ص 133.

بسم الله الحيّ الصمد، الرافع السماء بلا عمد، الحمد لله الذي ألبس الشعر جمالاً وجلالاً، وجعل فيه البيان سحراً حلالاً. فطابت النفوس في جنات أزهاره. ورقصت الألباب بكؤوس عقاره. أما بعد، فيقول العبد الفقير المعترف بالعجز والتقصير فرنسيس ولد فتح الله مراش: هذا ما قصدتُ إثباته من الشعر الذي تمخضت عنه قريحة الشباب، ولقّنتني إياه ألسنة الأسباب، وقد رتّبته على حروف الهجاء. متجرِّداً عن المدح والهجاء. فإنّ المدح إطراء ورياء. والقدح حسد وعياء. فما أحوجني الله إلى بيع ماء المحيا في سوق الشعر. وأبى الله أن أردَّ الدّرّ إلى القعر. ولكنّني قد مدحت بعض العلماء والأخلاء الكرام. تبياناً لفضل العلم وحفظ الذمام. وحال ذلك لم أذكر من الأسماء إلاَّ اليسير الخطير. مخافة أن يفرَّ القلب ويطير. فواغبنَ شاعر سوّد بالمدائح بياض القرطاس. وباع كرايم الشعر وذهبه في سوق الزجاج والنحاس. والله إن تلك إلاَّ تجارة خاسرة. وهمّة قاصرة. هذا وأرجو من كلّ مطالع أن يسبل غطاء المغفرة والمعذرة على ما يراه من الهفوات والعيوب، فإنّ العصمة لله وحده وهو غفّار الذنوب"[25].

ونظراً إلى هذا البيان وحيد عند المراش فإننا سنتخذ منه دليلاً ومفتاحاً لقراءة شعره، ويلاحظ فيه سمتان: معنوية هي التواضع، وفنية هي أنّ البيان مكتوب بأسلوب النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فما زال السجع مهيمناً عليه. أما البيان نفسه فهو يتألف من أربع نقاط هي:

1 ــ الشعر كلام السحر والجمال.

2 ــ التنبيه على أنَّ الديوان لا يتضمّن شعره كاملاً.

3 ــ نفوره من الموضوعات التقليدية والتفاته إلى موضوعات عصرية.

25 - كتاب مرآة الحسناء، طبع بمطبعة المعارف في بيروت سنة 1872، ص 2.

4 ــ اعتذاره عن الأخطاء والهفوات.

النقطة الأولى في بيانه: الشعر كلام السحر والجمال أمر معروف لــدى معظــم الشعراء في القديم والحديث عند العرب وسواهم، والنقطة الثانية، وهي أن ديوانه هذا لا يتضمن شعره كلّه، أمر واضح أيضاً من أعماله الأخرى التي أورد فيها قصائد لــه غير موجودة في هذا الديوان، والنقطة الرابعة تشير إلى تواضعه واعترافه بالتقــصير ووقوعه في بعض الأخطاء والهفوات، وهذا ما أثبته في ختام الديوان شعراً، فقال:

هفواتي كثيرةٌ ليسَ تُحصى ومنَ الفضل لــيسَ لــي مــن مزيّــهْ
غلطــي فاضــحٌ فــإن ســترته فئــةُ الفــضل قلــتُ نِعْــمَ الــسجيّهْ
وإذا رامَ كــــشفَهُ ذو كمــــالٍ كــان شــكري لــه أقــلَّ هديــهْ
لم أقصِّرْ عن مطلــبِ العلــمِ لكــنْ لــيس لــي قــوّةٌ ولا قابليّــهْ
طالمــا رمــتُ أن أجــوِّدَ نفــسي وبعيــدٌ تجويــدُ نفــسٍ رديَّــهْ
كلُّ شــيءٍ حــصلتُهُ فيــه نقــصٌ فأنــا نــاقصٌ بكــلِّ قــضيّه[26]

وينبغي أن نشير هنا إلى أن في شعر المراش كثيراً من الهفوات التي لــم يكــن يسلم منها بعض معاصريه، ولاسيما الوزن الشعري، وعلينا أن نضع فــي الحــسبان أيضاً أن حياته في أخريات عمره كانت مزدحمة بالإنتاج المختلف الذي يحتــاج إلــى تدقيق وتجويد وإعادة نظر، ولكن عمره القصير حال دون ذلك، فــضلاً عــن نعمــة البصر التي حُرم منها.

26 - المصدر نفسه، ص 343.

أما النقطة الثالثة، وهي الأهمّ، ويعبّر فيها عن موقفه من الموضوعات القديمة فهذا ما ينبغي لنا أن نتوقف عنده، ونقسّم شعره حسب موضوعاته إلى قسمين كبيرين: موضوعات قديمة وموضوعات عصرية.

قصائد المراش هي وليدة القرن التاسع عشر، وهي تعجّ بالموضوعات القديمة، ومن ذلك مثلاً شعره الغزلي، وهو كثير جداً ولا يختلف عن موضوعات الغزل في الشعر العربي بمعانيه وأفكاره وصوره وإيقاعاته، ولكنّه يُعَنْونُ بعض قصائده، ومنها قصيدته "بلوى الغرام" ومطلعها:

أعدِ الصَّبْرَ إنْ يعدْكَ الحبيبُ وَتَجَلَّدْ فكلُّ آتٍ قريبُ[27].

وقصيدته "دهشة الهوى" ومطلعها:

ماستْ فَأَوْرَثَت الفؤادَ عَذَابا وَرَنَتْ فَغَادَرَت الجنان مصابا
غيداءُ قامَ بها الجمالُ فإن بَدَتْ تسْبي البدورَ وتسلبُ الألبابا[28]

وثمة قصائد كثيرة في هذا الموضوع القديم في كتبه الأخرى، ومنها دعوته إلى العشق في قصيدة طويلة (47 بيتاً)، ومنها:

ماذا ترى في العشقِ ماذا تزعمُ يا أيُّها الصَّبُّ الكئيبُ المغرمُ
هل فيه غيرُ المؤلماتِ فَدُونَهُ مُقَلٌ تسيلُ وأَكْبُدٌ تتضرَّمُ
إنِّي أَضَعْتُ الْعُمْرَ في سُوق الهوى بخساً ولم أربحْ سوى ما يؤلمُ[29]

27 - المصدر نفسه، ص 24.
28 - المصدر نفسه، ص 25.
29 - غابة الحق، ص 196، وانظر: غابة الحق، ص ص 201 ــ 203.

ومن موضوعاته القديمة الوصف، والموصوف محدّد دائماً، ومن ذلك مثلاً وصف الخمرة الآتي:

وصافيةٍ مُشَعْشَعَةٍ تمزِّقُ ظُلْمةَ الكمدِ
شربْناها مبرَّدةً تلُوحُ برونقِ البَرَدِ
فسارتْ في ضمائرنا مسيرَ الشمسِ في الجلَدِ
وقد حلَّتْ بأنفُسِنا محلَّ النفسِ في الجسدِ
فيا بلّورةً كسرَتْ صخورَ الحزنِ والكمدِ
بها يصفو بلا رئةٍ دمٌ يحلو بلا كبدِ
ويا للراحِ من روحٍ تُعيدُ الظبيَ كالأسدِ[30]

ويذكّرك البيت الأخير بما قاله من قبل الأخطل في بيتيه الشهيرين:

إذا ما نديمي علّني ثمَّ علَّني ثلاثَ زجاجاتٍ لُهَنَّ هَديرُ
خرجْتُ أجرُّ الذَّيْلَ زهواً كأنّني عليكَ، أميرَ المؤمنينَ، أميرُ[31]

ومن ذلك مثلاً وصفه للصباح في أبيات عدة ، وهو وصف عادي، من مثل قوله:

والفجرُ مدَّ على السما بحرَ السَّنَا فهوتْ دراري الأفقِ في التَّيَّارِ
والليلُ مزَّقَ ثوبَهُ حزناً على فقدِ النجومِ وغارَ في الأغوارِ[32]

30 - مرآة الحسناء، ص ص 87 ــ 88.
31 - شعر الأخطل (صنعة السّكّري)، تح. د. فخر الدين قباوة، دار الأصمعي بحلب، ط1971،1، ص755.
32 - غابة الحق، ص 134.

ويمكننا أن نُلحق بهذا الموضوع الوصفي ما جاء من وصف جديد وإعجاب باهر بمدينة باريس، وقد قال شعراً يصف ركوبه القطار متجهاً إليها في قصيدة بلغ مجموعها ستة وعشرين بيتاً، ومنها هذان البيتان:

إلى جنَّةِ الفردوسِ هل أنا سائر تُرى أم إلى دنيايَ أخرى مسافرُ

وهل أنا مع نسر السما طائرٌ إلى سما أم بخارُ الماء بي هو طائرُ[33]

وليس الإعجاب الشديد ناجماً عن جمال باريس الفتّان فحسب،وإنّما هو ناجم أيضاً عن مبادئ المساواة والحرية وحقوق الإنسان التي قرأها المراش وتأثر بها قبل أن يصل إلى باريس، فلما وصل إليها قال فيها:

لستُ أدري في أيِّ كونٍ مكاني هل أنا في باريسَ أم في الجنانِ

كلُّ ما جاءَ في السَّمَاعِ عن الْجَنَّةِ ألقاهُ هنا بالعيانِ

ها أنا وسط جَنّةٍ تحتها الأنْـ ـهارُ تجري لكنْ بها كوثرانِ[34]

وثمة موضوع قديم آخر في ديوانه، وهو الرثاء، وهو هنا يرثي العلماء والأدباء، ومن ذلك قصيدته في رثاء ناصيف اليازجي، ومطلعها:

عَدمْنَا العَنَايَا مذ هوى عَلَمُ العلمِ ومن أينَ لنا في الدنيا عَدَمُ العدمِ[35]

ويصرّح المراش في غير قصيدة ومقطعة بأنّه ضد المديح في الشعر، ومن ذلك:

أنا لا أَمْدَحَنَّ فتىً كغيري ليرْفدَني بشيءٍ من جداهُ

فما للمرءِ من خلٍّ معينٍ بضيقٍ غير ما كسبتْ يداهُ[36]

---

33 - المراش، فرنسيس فتح الله: رحلة باريس (1867)، ص 37.

34 - نقلاً عن عبود، مارون: المجموعة الكاملة (2)، ص 129.

35 - مرآة الحسناء، ص 236. يلاحظ انكسار الوزن في الشطر الثاني.

36 - المصدر الحسناء، ص 310.

وهو يحمل على الشعراء الذين يبيعون شعرهم، ويتبرّأ من هذه الفعلة الشنيعة:

لا أمـــدحنّ ســـوى لبيـــبٍ فاضـــلٍ أو صـــاحبٍ حـــامي الـــذمامِ مـــؤاسِ

ما لـــي وللألقـــابِ، فهـــي بأهلِهـــا جـــاءتْ كـــأجراسٍ علـــى أفـــراسِ

كـــم دولـــةٍ، أو رقعـــةٍ، أو عـــزّةٍ شُـــرِيَتْ بمـــالٍ، أو برشـــقةِ كـــاسِ

كلمـــاتُ تعظـــيمٍ علـــى مـــستحقرٍ لم يَسْوَ فِلْـــساً فـــي غـــلاءِ النّـــاسِ[37]

ومع ذلك فهو يمدح عظمة السلطان العثماني عبد العزيز خان في قصيدة يفتتحها بهذه الأبيات:

لِأَعْتَـــابِ ســـلطانِ الأنـــامِ ســـعى فكـــري

فيا لَيْتَ شـــعري هـــل يفـــي مدحَـــهُ شـــعري

مليـــكُ الـــورى عبـــد العزيـــز الـــذي جـــرى

علـــى ســـيفِهِ الماضـــي دمُ الظلـــمِ والغـــدرِ[38]

وثمة موضوع قديم ظلّ عالقاً بشعره، وهو من بقايا عصور الانحدار، فقد قـال يؤرّخ لمولود:

عليـــكَ قـــد أنْعَـــمَ الإلـــهُ، بمـــو لـــودٍ ســـيربى براحـــةِ الكـــرم

بهِ الأسى عن مؤرّخيـــهِ مـــضى ونعمـــــةُ اللهِ أشـــــرفُ الـــــنِّعَمِ

سنة 1859 "[39]"

37 - المصدر نفسه، ص 156.

38 - المصدر نفسه، ص 112. ويلاحظ أن الشطر الثاني من البيت الثاني مكسور عروضياً.

39 - المصدر نفسه، ص 249.

في شعر المراش أيضاً موضوعاتٌ تتقاطع بين القديم والجديد، ومنها الافتخار بشاعريته كالمتنبي، وهو يوازن بين ما يقوله من شعر وما يقوله شاعر عادي آخر:

قلتُ شعراً وقال غيريَ شعراً فكلانا في دارج القول شاعرْ

وإذا كانَ تاجرُ الدّرِّ يُدعى تاجراً كان تاجرُ الفحمِ تاجرْ[40]

وهو يردّ على أحد منتقدي شعره بأنَّه لا ينظم سوى الجديد:

وشيخٍ مُذْ رأى نظمي ونثري فقالَ وَطَبْعُهُ شرُّ الطباعِ:

أرى معناكَ مطروقاً كثيراً فقلْتُ: نَعَمْ بمطرقةِ اختراعي[41]

ومن ذلك أيضاً وصفه لطموحه وحديثه عن همّته التي لا تعرف الكلل والتراجع، كما هي الحال في شعر المتنبي، فقد جاء في نهاية قصيدة يصف فيها ذلك وهو في طريقه إلى باريس:

تُقَلِّبُني الدنيا على موقدِ البلى ولي همّةٌ في الصَّبْرِ عَزَّ انصرامُهَا

ويجري عليّ الدّهْر جيش خطوبِهِ وما أنا ذا نفسٍ يهونُ اقتحامُها

ومَنْ خَبِرَ الدنيا وأدركَ سِرَّهَا تساوى لديهِ حَرْبُها وَسَلاَمُهَا[42]

أما الجديدُ في شعره فهو ما يتصل بالموضوعات التنويرية الخالصة، وهي كثيرة، وفي مقدمتها الدعوة إلى العلم وإيمانه بأنّ العلم والعقل سارا بالأمم إلى التقدّم والازدهار، ومن ذلك ما جاء في قصيدته "دعوى الجهل" التي يبيّن فيها بقاء العلوم في الأمم وذهاب الأموال إلى غير رجعة:

---

40 - المصدر نفسه، ص 114.

41 - المصدر نفسه، ص 124.

42 - رحلة باريس، ص 31.

ذو المال يفنى ولا يبقى لهُ أثـرٌ لكـنْ أخـو العلـمِ لا تفنـى مـآثِرُهُ
كم تاجرٍ عمَّتِ الـدنيا تجارتُـهُ ثمَّ اسـتحالتْ إلـى فقـرٍ متـاجرُهُ[43]

وثمة الدعوة إلى أن يكون الإنسان مصدر خير وأن يكون نافعاً لأخيه الإنـسان، وأن يسخّر قدراته في هذا السبيل، ويضرب على ذلك مثلاً من خـلال مـشاهد مـن الطبيعة:

يا صاحِ لا تَـكُ بالعليـاءِ مفتخـراً إن كنتَ لم تولِ نفعاً قطُّ بـل ضَـرَرَا
إنِّي أرَى شجرَ الصفـصافِ مرتفعـاً إلـى الْعُلُـوِّ ولكـنْ لا أرى ثَمَـرَا[44]

وهو يدعو إلى أن تسود المحبة بين الناس، وقد دعا إلى ذلك جبران خليل جبران في كتابه "النبي" فيما بعد، وهو يصورها تصويراً أخّاذاً، فإذا هي غادة حسناء لا عيبَ فيها، وهي عنده شرط لدخول مملكة التمدن، ومما قاله فيها:

رعى الله قلباً فيه قد صـاح صـوتُها وقاتـلَ قلبـاً فيـهِ لـيس يـصيحُ
هي الأصلُ في الأكوانِ فهـي مثابـةٌ لكـلِّ قلـوبِ العـالمينَ تـريحُ...
بها سائرُ الأجيالِ غنَّـتْ وقـد أتـى لهـا مـن جميـع المنـذرين مـديحُ
هي الكوكبُ السَّيّارُ في فلـكِ الـدُّنَى بهِ السَّعْدُ يغـدو والنحـوسُ تـروحُ[45]

ودعا الأنثى إلى أن تتزّين بالأخلاق الفاضلة والسيرة الحسنة، وألاّ تغرّ بجمالهـا الزاهر، فليس الجمال سوى عرض زائل:

الحسنُ في الوجـهِ سـريعُ الـزوال فَلْـتَعْلمِ الحـسناءُ ذاتُ الـدلال

43 - مرآة الحسناء، ص 302.
44 - المصدر نفسه، ص 140.
45 - غابة الحق، ص 192.

يـــا ربـــةَ الحـــسن جمالُـــكِ لا يـــــدومُ إلاَّ كـــــدوامِ الخيـــــالِ
فحـــسنُ وجـــهٍ ذاهـــبٌ كالهبـــا وحـــسنُ طبـــعٍ راســـخٍ كالجبـــالِ
فجمّلـــي الطبـــعَ وحلّـــي النُّهـــى لتقتنـــي الحـــسنَ العـــديمَ الـــزوالِ[46]

وهو يبين أن الجمال المصنوع زائل حتماً، ولا بدّ في يوم من الأيام أن يُكتـشفَ زيفُهُ، وهذا ما رواه لنا المراش:

طرقتُ خباها بغتـــةً يـــومَ تبكيـــرِ فـــصبَّحَني وجـــهٌ كرقعـــةِ تـــصويرِ
هناكَ على المـــرآةِ كانـــت مكبَّـــةً تُمَـــوِّهُ خـــدَّيها بـــصبغةِ حَنْجُـــورِ
فأيقنتُ أنِّي في الهوى كنتُ والعـــاً بمسحوقِ تبيـــيضٍ ومحلـــولِ تحميـــرِ[47]

أما الموضوعات الأكثر جدّة وتنويرية فهي في دفاعه عـــن العنـــصر العربـــي، وافتخاره بهذا النسب ذي الأرومة الأصيلة، وليس الأمر مقتصراً على الفخر، وإنمـــا هو يقدّم في قصيدته الطويلة "العرب والإفرنج" البراهين والحجج على دور العرب في الحضارات الإنسانية ومشاركاتهم في العلوم والمعارف، ويـــستنكر مـــن الإفـــرنج أن يستهينوا في زمانه بالعنصر العربي، وليسوا هم في نهاية الأمـــر ســـوى لـــصوص وقراصنة سطوا على تراث العرب، وادّعوا بأنّهم أصحابه:

حتـــام تَـــزْرُونَ يـــا إفـــرنجُ بـــالعربِ
مهـــلاً فـــلا خيـــرَ بـــابنٍ قـــد زرى بـــأبِ
ما فضلُ قومٍ منَ الأوباشِ لا نَسَبٌ
لهـــم علـــى قـــومِ إســـماعيلَ ذي النَّـــسَبِ

46 - سلسلة الأعمال المجهولة (مشهد الأحوال)، ص 136.
47 - نقلاً عن زيدان، جرجي: المؤلفات الكاملة (16)، ص 451.

إنْ كـــان بـــالعلمِ جئـــتُمْ تفخـــرونَ فمـــن
معـــالم العـــربِ كـــلُّ العلـــمِ والأدبِ(...)

فهـــل فـــضلْتُمْ علينـــا باختطـــافكمُ
أرزاقنـــا آهِ واحزنـــي وواعجبـــي!؟
وأيُّ فَـــضلٍ للـــصٍّ دَبَّ فـــي غَـــسَقٍ
على غِنىً فاكتسى طوقـاً مـن الـذهبِ؟(...)
لا تفخـروا يـا بنـي الإفـرنجِ فـي شـططٍ
على بنـي العـربِ أهـل الأصـلِ والحـسبِ
صَـــعَدْتُمُ الأوجَ لكـــنْ فـــوقَ ســـلَّمِهِمْ
فكرّمـــوا ســـلّماً تمتـــدُّ للـــشهبِ
وطهّـــروا عنـــدَ ذكـــر العـــربِ أَلْـــسُنَكُمْ
فـــالعربُ ســـادتكُمْ مـــن ســـالفِ الحِقَـــبِ[48]

ونظراً إلى أنّ هذا الانتماء واضح وصريح فإنّ المراش يدعو بني قومـه إلـى النهضة والحرب، كما فعل الشاعر الجاهلي لقيط بن يعمر الإيادي في عينيّته من قبل، وكما فعل معاصر المراش إبراهيم اليازجي في بائيته من بعد، فقـال فرنـسيس فـي قصيدة بعنوان "نشيد الحرب":

48 - مرآة الحسناء، ص 44 ــ 45.

هبــوا مــن الغفــلاتِ يــا أهــلَ الــوطنْ

إنَّ العــــدوَّ دنــــا وهــــا نــــار الفِــــتَنْ

حتــــى متــــى يــــا أُسْــــدُ صــــبركمُ ألا

هبُّــوا فقــد حــامَ الــذئابُ علــى الــدمن[49]

وقد تأثر المراش بمبادئ الثورة الفرنسية وحقوق الإنسان، وهذا ما يتلمسه المرء في غير عمل من أعماله النثرية والشعرية، وقد تجلّى هذا في دعوته إلى المساواة بين أفراد المجتمع، فقال:

صــدّقوني كــلُّ الأنــامِ ســواءٌ مــن ملــوكٍ إلــى رعــاةِ البهــائمْ

كلُّ نفــسٍ لهــا ســرورٌ وحُــزْنٌ لاتَنِــي فــي ولائــم أو مــآتمْ

كم أميرٍ في دَسْــتِه بــات يــشقى بالُــهُ والأســيرُ فــي القيــدِ نــائمْ

أصغرُ الخلقِ مثــلُ أكبرهــا جــر مــاً لهــذا وذا مزايــا تلائــم

هذه النملُ تــستطيعُ الــذي تَعْــ ــجَزُ عن فعلِــهِ الأســودُ الــضياغمْ

والخلايــا للنحــلِ أعجــبُ صُــنْعاً من قــصورِ الملــوكِ ذاتِ الــدعائم[50]

وإذا اتخذنا مقولة "التناص" النقدية دليلاً أو منهجاً قلنا إنّ قصيدة "الطين" الشهيرة لإيليا أبي ماضي ذات صلة وثيقة بمعاني أبيات المراش في قصيدته السابقة، بل هما قد تعودان إلى نسب واحد. ويستطيع القارئ أخيراً أن يُسَجِّل بعض السمات التي تتجلّى في شعر المراش، وأهمها:

49 - غابة الحق، ص 143.

50 - نقلاً عن زيدان، جرجي: المؤلفات الكاملة (16)، ص 450.

ــ أن قصائده تتراوح من حيث الحجم بين القصائد الطوال في الغزل والوصف وبعض الموضوعات الأخرى، وهي كثيرة، وبين المقطعات التي لا تزيد على بيتين أو ثلاثة، ومن ذلك مثلاً هذان البيتان في الغزل:

قامتْ تُعاطيني المُدَامَ مليحةٌ تُغني بمقلتِها عن الصَّهْبَاءِ

فَلَثَمْتُ وَجْنَتَهَا فسُكْري كانَ بالْـ ـحمراءِ والسَّوْداءِ والصفراءِ[51]

ومنها هذه المقطعة في موقفه من شعر الهجاء:

إذا رَأَيْتَ أديباً في مجادلةٍ يحاولُ الشَّتْمَ قُلْ: هذا بلا أدبِ

فما دعاهُ أديباً غيرُ ناصرِهِ وهلْ يقومُ بنَصْرِ الغمرِ غيرُ غَبِي[52]

ــ أنّ المراش استخدم المزدوجات والمخمّسات في شعره قبل خليل مطران وجماعة أبولو بزمن ليس قصيراً، فمن المزدوج ما جاء في معنى الخيانة، ومنها قوله:

صحبتُ نذلاً يستدرُّ ودّي وهو مولعٌ بنكثِ عهدي

قد كان يدعو نفسَهُ ربَّ الوفا والآن في ذكري يهز الكتفا

أظهر لي الودّ ليجني زهري وإذا تولاَّهُ لوى بالظهرِ

فصار قمحي عندَهُ زوانا وَدُرَرِي أضحتْ له أدرانا[53]

ومن المخمسات ما نظمه في وصف مدينة باريس، ومنها هذان المخمسان:

والصبحُ ذو مكانسِ الشعاعِ يَسْعَى بكنسِ الظلِّ في البقاعِ

51 - مرآة الحسناء، ص 9.

52 - المصدر نفسه، ص ص 19 ــ 20.

53 - غابة الحق، ص 264.

يـــرشُّ مـــاءَ الـــوَهَجِ اللمَّـــاعِ فينـــــشر الـــــشّعَاعَ كالـــــشراعِ

وتنطـــوي غبـــائرُ الـــديجور

من لا يرى بـــاريسَ فـــي دنيـــاهُ لم يـــدرِ مـــا الجنَّـــةُ فـــي أُخْـــرَاهُ

ذي جنَّـــةٌ لـــيسَ لهـــا أشـــباهُ ما صـــاحَ فـــي جوارهـــا: ويـــلاه؟

سوى عـــديم الـــذوقِ والفقيـــر[54]

ــ أنّ المراش نظم كثيراً من الموشحات ليتحرّر من قيود القافية[55]، وهـــو فـــي بعضها مجدّد ومبدع، ومن ذلك مثلاً موشحة عن العشق يقول فيها:

نفضَ الشرقُ على وجـــهِ المغيـــبِ غبـــــــــرةَ الـــــــــديجور

وسعى الصبحُ إلى العود الرطيـــب بكـــــــــؤوس النـــــــــور

فانثنى يـــرقصُ والأمـــر عجيـــب رقـــــــــصة المخمـــــــــور

بقـــوامٍ خلتُـــــهُ قـــدَّ الحبيـــب أســـــــــكرتْهُ الخُـــــــــور[56]

وواضح هنا أن جبران خليل جبران الذي كان معجباً بالمراش ومهتمـــاً بقـــراءة أعماله[57] قد سار في نظم موشحه الشهير "أغنية الليل" على مسار هذا الموشـــح فـــي الوزن والشكل والصور[58]، فقال:

54 - نقلاً عن عبود، مارون: المجموعة الكاملة (2)، ص 130، وانظر: مرآة الحسناء، ص 304.

55 - انظر: مرآة الحسناء، الصفحات 62 و149، 153 و168 و196 و205 و250 و327.

56 - نقلاً عن الكيالي، سامي: محاضرات عن الحركة الأدبية في حلب، ص 148.

57 - انظر: صايغ، توفيق: أضـــواء جديـــدة علـــى جبـــران، بيـــروت، 1966، ص ص181-182 وص200.

سكن الليل وفـــي ثـــوبِ الـــسكونْ تختبـــــــــــي الأحـــــــــــلام
وســـعى البـــدرُ وللبـــدر عيـــون ترصـــــــــــدُ الأيـــــــــــامْ
فتعـــالَيْ يـــا بنـــةَ الحقـــلِ نـــزور كرمـــــــــــة العـــــــــــشاق
علّنـــا نطفـــي بـــذيَّاكَ العـــصير حرقـــــــــــة الأشـــــــــــواق[59]

ــ أنّ المراش من أوائل الشعراء العرب في العصر الحديث الذين اهتموا بعنونة القصيدة، وهذا يعني أن القصيدة بدأت تتجه إلى أن تكون موضوعاً واحداً على الأقل.

وبعد فإنّ المراش غزير الإنتاج شعرياً بالقياس إلى عمره القصير، وفي شـــعره كثير من القديم وكثير من التكلّف، وفيه أيضاً كثير من الجديد الذي سبق فيه شـــعراء عصره، وكان منارة لشعراء أتوا بعده، فـــساروا علـــى طريقتـــه فـــي الموشـــحات والمخمسات والمزدوجات، وشاعرية المراش في شعره ونثره، وقد وصفها قـــسطاكي الحمصي: "أما وصف شاعريته، فذلك غرض بعيد، فقد كان الرجل شاعراً في نثـــره ومرسله شاعراً في تخيّله، إلى الغاية القـــصوى، لا شـــاعر أوزان، أو نظّـــام ألفـــاظ موزونة ككثير مما عرفنا، فإن تخيلاته كانت تزاحم ألفاظه، بل كانت تعجز عنهـــا"[60]، ويرى موريه أنّ المراش كان "واحداً من أهم شعراء القرن التاسع عشر الذين حاولوا إحداث ثورة في الشعر العربي الحديث من حيث المعجـــم والموضـــوعات والمجـــاز والتصوير. وتبعه في ذلك المهجريون ولا سيما جبران"[61].

58 - انظر: موريه، س: الشعر العربي الحديث (1800 ــ 1970) تطور أشكاله وموضوعاته بتأثير الأدب الغربي، ترجمه وعلق عليه د. شفيع السيد، ود. سعد مصلوح، دار الفكر العربـــي، القـــاهرة، 1986، ص 71.

59 - المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران العربية، دار صادر ودار بيروت، بيروت، 1964، ص 605.

60 - أدباء حلب ذوو الأثر في القرن التاسع عشر، ص 66.

61 - الشعر العربي الحديث، ص 72.

نعم كان المراش مجدّداً في نثره وشعره، وقد فتح آفاقاً واسعة لمعاصريه ومن جاؤوا بعده، ولكنّ في شعره عيوباً كثيرة لم يسمح له عمره القصير بأن يعود إلى تنقيح ما كتب من إنتاج غزير في مدّة يسيرة، وهذا ما عبّر عنه مارون عبود في نهاية كلامه على المراش: "وبعد، فلستُ أحدّثكَ عن الأخطاء اللغوية، في كتب المراش هذه لأنها كثيرة جدّاً. ولا في الإسهاب في التعبير لأنّ عبارته غير مرصوصة ولا متلازّة، وهو يزجّ في شعره ونثره الألفاظ العامية غير الفصيحة، ويتصرف كما يشاء في الاشتقاق والجموع، ولو خلا نظمه ونثره من مثل هذه العيوب لكان أكتب وأشعر أهل زمانه"[62].

خاتمة:

وبعد، فإنّ المراش أديب من أهمّ أدباء التنوير في القرن التاسع عشر ليس على صعيد حلب وحدها، وإنما على صعيد الثقافة العربية، فقد ثار على مجتمعه وعصره ثورة تقوم على العقل والمنطق، واستخدم في سبيل ذلك ثقافته العلمية للبرهنة على ما يذهب إليه، ودعا إلى الاهتداء بالعلم للوصول إلى الحرية والمساواة والنهضة لمواكبة نهضة الغرب بعامة، والنهضة الفرنسية بخاصة، وقد كان معجباً ومنبهراً بما حققته باريس من إنجازات إنسانية حضارية، وربما كان المراش من أوائل المفكرين العرب الذين دعوا إلى خلافة إسلامية يكون الخليفة فيها عربياً، ثم هو كاتب موسوعي، فقد كان طبيباً ومفكراً وروائياً وشاعراً، ورواية المراش ذات هدف تنويري مثل روايات جرجي زيدان، وهو بناء دولة التمدن والحرية والمساواة، وقد جدّد شعرياً على صعيد الموضوعات، فتبنّى موضوعات تنويرية جديدة، كالدعوة إلى العلم، وسيادة المحبة بين الناس، ودفاعه عن العنصر العربي، ولاسيما قصيدته الطويلة "العرب والإفرنج" والدعوة إلى النهضة والمساواة بين أفراد المجتمع الواحد، وإن كان ذلك لا يلغي أنّ في شعره قسماً كبيراً من الموضوعات التي كانت سائدة في عصره، لأن التجديد،

62 - المجموعة الكاملة (2)، ص 136.

ولاسيما الشعري منه، بطيء الحركة، وقد كان أسلوبه الشعري بسيطاً وأكثر تحـــرّراً من معاصريه، ولاسيما صعيد القافية الموحدة والمعجم اللغـــوي والاهتمـــام بـــالمعنى والفكرة أحياناً على حساب الشكل، ومع ذلك كلّه ينبغي لنا أن نقول إن هـــمّ المـــراش الأول كان تنويرياً، في حين جاء الأدب تالياً، أو هو وسيلة تنويرية، وهذا ما كان عليه أدب القرن التاسع عشر عند جرجي زيـــدان وفـــرح أنطـــون والـــدلال واليـــازجيين والطهطاوي وصروف ومحمد عبده وسواهم، فالأدب عندهم وسيلة تنويرية، ومع ذلك فإننا لا نتنكر هنا لدور المراش الأدبي وسواه، فهو مؤسّس أول من مؤسسي الرواية، وهو مجدّد في الشعر العربي وموضوعاته، لأنّ على المتنوّر أن يقـــدّم أدبـــاً يتقبّلـــه القارئ، وهكذا كان المراش من المؤسسين الـــذين مهّـــدوا الطريـــق إزاء الآخـــرين، ووضعوا المداميك الأولى لتغيير طبيعة الحياة والأدب.

المصادر والمراجع

1- الأخطل: شعر الأخطل (صنعة السّكّري)، تح. د. فخر الدين قباوة، دار الأصمعي بحلب، ط 1، 1971.

2- باروت، جمال: حركة التنوير العربية في القرن التاسع عشر ــ حلقة حلب، وزارة الثقافة، دمشق، 1994.

3- جبران، جبران خليل: المجموعة الكاملة (العربية)، دار صادر ودار بيروت، بيروت، 1964.

4- حاج إسماعيل، حيدر: فرنسيس المراش، الأعمال المجهولة، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، 1989.

5- حسّون، رزق الله: أشعر الشعر، المطبعة الأميركانية، بيروت، 1870.

6- الحمصي، قسطاكي: أدباء حلب ذوو الأثر في القرن التاسع عشر، مطبعة الضاد، حلب، 1968.

7- زيدان، جرجي: المؤلفات الكاملة (16)، دار الجيل، بيروت، 1982.

8 - صايغ، توفيق: أضواء جديدة على جبران، بيروت، 1966.

9 - صليبا، د. جميل: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982م.

10- عبود، مارون: المجموعة الكاملة (2)، دار مارون عبود، بيروت، 1986.

11- فتوح، عيسى: وجوه مضيئة في الأدب العربي الحديث، مكتبة السائح (طرابلس)، ودار كيوان (دمشق). 2003.

12- الكيالي، سامي: محاضرات عن الحركة الأدبية في حلب (1800 ــ 1950)، معهد الدراسات العربية العالية، 1957.

13- مراش، فرنسيس: غابة الحقّ (تقديم ودراسة د. جابر عصفور)، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، 2001.

14- مراش، فرنسيس: رحلة باريس (1867) حرّرها وقدم لها قاسم وهب، دار سويدي للنشر والتوزيع (أبو ظبي) والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 2004.

15- مراش، فرنسيس: مرآة الحسناء، مطبعة المعارف، بيروت، 1872.

16- مراش فرنسيس: مشهد الأحوال ــ الأعمال المجهولة، رياض الريس، لندن، 1989.

17- موريه، س: الشعر العربي الحديث (1800 ــ 1970) تطور أشكاله وموضوعاته بتأثير الأدب الغربي، تر.د. شفيع السيد ود.سعد مصلوح، دار الفكر العربي، القاهرة، 1986.

18- الموسى، د. خليل: خمسة أدباء مؤسسون من حلب الشهباء، المعرفة، ع 508، كانون الثاني 2006.

19- وهبة، مراد: المعجم الفلسفي، القاهرة، طبعة 4 ، 1998م.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2007/4/23.